الفصل الثاني

علاقة القضاء بالقدر

إن للقضاء والقدر جوانب شتى، ولكن يمكن جمعها في أربع مجاميع:

١. القضاء والقدر من حيث العلم الإلهي.

٢. القضاء والقدر من حيث الكتابة الإلهية لكل شيء.

٣. القضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية.

٤. القضاء والقدر من حيث الخلق.

وهناك مسائل كثيرة متداخلة بعضها في البعض الآخر تندرج تحت هذه الأُسس الأربعة، ولكن لئلا نغرق الموضوع في تفاصيل جزئية نصرف النظر عن درجها كمَوادّ مستقلة، ونحاول الآن أن نفصل هذه الأسس الأربعة كلٌّ على حده وحسب تسلسلها.

١. القضاء والقدر من حيث العلم الإلهي

أودّ أن أستهل الموضوع بحديث شريف ذكرناه سابقاً وهو:

"ما منكم من أحدٍ، ما من نفْسٍ منفُوسة إلا وقد كتَب اللهُ مكانَها من الجنة والنار".[1] بمعنى أن الله ﷻ يعلم مكان الإنسان من الجنة والنار قبل أن يُخلق. فلنفصّل القضاء والقدر من حيث العلم الأزلي:

إن الله سبحانه عليم بكل شيء، يقدّر كل شيء ويعينه وفق علمه. وهناك من المسائل ما يتفضل الله فيها علينا بالعطاء، ويقضي علينا قضاءه وحكمه ويجعلنا مكلفين بالقرآن الكريم بالذات. ولكن كثيراً منها ما لا تمش

(١) مسلم، القدر ٧.

لها نفوسُنا، إذ تجدها غير مرغوبة فيها. ولكن الله سبحانه، وهو العليم الخبير، لا يحكم بحقنا شيئاً ولا يقضي قضاءً إلاّ وفيه حِكَمٌ وفوائد ومصالح لنا. ففي تقديراته سبحانه وتعييناته قد أخذت هذه المصالح والفوائد بنظر الاعتبار. بيد أننا غافلون عنها جميعاً، حيث نجهل والله يعلم. إذ إن علمه بشيء ما ومقارنة حكمته له، لا ينفكّان أحدهما عن الآخر: العلم والحكمة. فالحِكَم والمصالح تعقب دائماً علمَه سبحانه، إلاّ أنه سبحانه ليس مضطراً إلى القيام وفق الحكم والمصالح، ولكن كما أن علمه محيط بكل شيء كذلك حكمته وسعتْ كل شيء. فهو عليم بكل شيء حكيم في كل شيء. ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر.

في كل شيء له حكمة، فالله لا يعبث. فالحكمة دائماً طوع علمه، فأينما يتجلى العلم وتزدهر القدرة والإرادة، إذا بالحكمة تسطع هناك وتتلمع. إلاّ أننا نجد التكاليف -في أغلب الأحيان- كريهة على نفوسنا لجهلنا بهذه الحكم والمصالح. لأننا لا نعرف حُسن هذه التكاليف من حيث نتائجها، أي أنها حسنة لغيرها كما هو في المصطلح الفقهي. إذ لو نظر الإنسان إلى الموجودات من هذه الجهة -أي من حيث النتيجة- يجد كثيراً جداً من الحكم والمصالح. أمّا السيئات والشرور فهي مرتبطة بكسبنا الخاص، والآية الكريمة تبين المسألة بوضوح تام:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ٢١٦).

أي أن كثيراً من الأمور تنطوي على مصالح وفوائد وخيرات رغم ان ظاهرها كريه وقبيح. فالوضوء في أثناء البرد، وقطع المسافات لبلوغ الجماعة في المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.. وأمثالها أمور ثقيلة على النفوس كريهة عليها. ولكن تحت هذه الصعوبة والثقل خطوات تلو الأخرى للتقرب إلى الجنة والتنعم برحمة الله مرحلة مرحلة. وهناك أيضاً أمور تشتهيها

النفوس وترغب بها وتسوق الإنسان إلى عالم الشهوات بينما وراءها سقوط في هاوية الجحيم وبعدٌ عن رحمة الله تعالى خطوة خطوة.

ولقد أصاب عمر بن الخطاب ﷺ في إدراك هذه المسألة حيث قال: "ما أبالي على أي حال أصبحت، على ما أحب أو على ما أكره. لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره".[1] والأصل في الأمر هو الانقياد لما يقضيه الله سبحانه والتجنب عن البحث عن الحكم فيها. نعم إن الواجب علينا هو السعي للخير وحمل نية الخير، فلا ينبغي أن ننخدع بالظاهر من الأمر والنهي بل علينا الطاعة التامة لأوامره تعالى.

إن خير مثال في هذا الصدد هو صلح الحديبية. إذ فيه من المواقف والأحوال ما لا ترغب فيها النفس، إذا ما نظر إليها من حيث الملك، أي من حيث ظاهر الأمر. ولكن إذا ما أخذ الأمر من حيث الملكوت والأبعاد اللدنية، فهو "فتح قريب" كما هو في التعبير القرآني.

وحقّاً إن ظاهر الأمر في الحديبية قد لا تتحمله النفوس، لكأن كل ما يعادي الإسلام قد اجتمع هناك، بينما الصحابة الكرام المستعدون للتضحية بكل غالٍ ونفيس، ليس لهم فيه أصغر حق. حيث كانت مشاعرهم متهيجة لأجل الطواف حول الكعبة المعظمة.

نعم هؤلاء الكرام ينتظرون منذ سنين وعلى مضض هذه الفرصة، والآن يحول الأعداء بينهم وبين ما يرغبون. لذا فإنه ثقيل على نفوسهم الرجوع من مكان قريب للكعبة، ولم يك هيناً. إذنْ على تلك النفوس المتهيأة للطواف أن ترضخ لبنود الصلح. ولاسيما بعدما شاهدوا ردّ أبي جندل وهو مكبل بالسلاسل إلى الكفار بينما هو يريد الاحتماء بالرسول ﷺ. ولا شك أن هذا المنظر مؤلم جدّاً لنفوس الصحب الكرام.. بمعنى أن جميع ما في ظاهر الحديبية يجري خلاف رغبات المؤمنين. ولكن رغم الانفعال الذي بلغ ذروته

(١) كتاب الزهد لابن المبارك، ص: ١٤٣.

في نفوس المؤمنين فإن الرسول الكريم ﷺ حافظ على سكينته وهو على يقين من العاقبة التي ستؤول إلى خير بلا شك. وهو معنى الابتسامة الحلوة التي كانت تحت نظراته الشجية. وحقاً إن إدراك أبعاد المسألة أمر صعب جداً. حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يدرك سر المسألة، أخذ بالاستغفار والتصدق طوال حياته لمّا أدرك السر كفارةً لما بدر منه في الحديبية. ولكن بعد نـــزول الآيات الكريمة أخذت العقد تنحل والمشاكل تتوضح وتتبدد لدى الصحابة الكرام بجميع أبعاد المسألة ظاهراً وباطناً.

نعم، الحديبية فتح، حيث إن قريشاً أخذت موقع المعاهد مع المسلمين، وهذا اعتراف رسمي بوجودهم. والمسلمون بدورهم ضمنوا العمرة في السنة القادمة، وهذا يعني أن الكعبة ليست حصراً بالمكيّين، مما أحيا في القبائل الأخرى روح الشجاعة. وفي صلح الحديبية فرصة عظيمة جداً للمسلمين لنشر دعوتهم، حيث قُرر ألاّ يحارِب الطرفان طوال عشر سنوات، وفعلاً دخلت القبائل، قبيلة إثر أخرى في الإسلام بعد أداء الإرشاد والتبليغ طوال هذه المدة الطويلة. فالحديبية حقاً فتح مبين.(١)

ومثال آخر نسوقه من ســـيدنا يوســـف عليه السلام لرؤية الجانب الملكوتي للحوادث وبيان وجهها الحسن.

إنه لأجل أن يكون عزيز مصر، كان لا بد أن يُرمى أوّلاً في الجبّ، ويباع بيع العبيد، ثم يُزجّ في الســـجن... وقد تجرع آلام كل هذا ســـيدنا يوسف عليه السلام واجتاز الامتحانات الصعبة بنجاح باهر يليق بنبيّ كريم. فوَراء الحوادث التي ظاهرها الصعوبة والثقل والكراهة مرتبة يرتقي إليها ليحكم ويؤدي دوره في قدَر الأمة، وقد بلغ سيدنا يوسف هذه المرتبة فعلاً.

ولقد ارتقى سيدنا الرسول الكريم ﷺ إلى المعراج في مثل هذه الظروف الصعبة والآلام تحيط به والمضايقات تشدد عليه الخناق، وكانت الأحداث

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٨٨-٢٠٢.

كلها ضده. إذ المسلمون تحت الحصار، وقد توفي إثنان ممن كانوا السند له، فلم تعد خديجة الكبرى ولا أبو طالب جنب الرسول ﷺ بحياتهما الجسمانية، فضلاً عما لاقاه في الطائف من الرد.[1]

ففي هذه الأثناء بالذات جاءت الدعوة الكريمة من الله سبحانه ليرفعه إلى السماء، فارتقى بالمعراج حتى بلغ قاب قوسين أو أدنى (بين الإمكان والوجوب). نعم لقد بلغ موضعاً لم يقدر جبريل عليه السلام إلاّ الاكتفاء بمشاهدته فحسب، حيث لا يمكنه أن يتقدم ولو بمقدار أنملة.[2]

أما سيدنا موسى عليه السلام فقد بدأت معاناته منذ الولادة حيث وضع في التابوت وأُلقي به في النهر، ثم أدخله الله إلى قصر فرعون، عدوه وعدو الله الأكبر، ثم عاش عيش الغرباء البعيد عن الأهل بعد أن لطم قبطياً فقضى عليه.[3] نعم إن تربية بني إسرائيل ورفعهم إلى المستوى المنشود لا بد له من اجتياز هذه الصفحات من الحياة التحضيرية. فعلى الرغم من أن سلسلة هذه الحوادث التي ترد بانتظام كريهة ظاهراً، فالله سبحانه يخلق الخير المطلق من هذه البدايات المليئة بالأحداث الصعبة الكريهة.

وكذا سيدنا المسيح عليه السلام كيف رُفع إلى السماء؟ وقد أُعدّ له الصليب ليصلب بعد أن عانى ما عانى من مضايقات وترصدات متعاقبة رهيبة. إلاّ أن الله سبحانه في تلك الأثناء بالذات يرفعه بيده الرحيمة إلى السماء.[4] فكما كانت ولادته معجزة، عاد إلى السماء بمعجزة أيضاً.

والأمر نفسه واقع في الأمة المحمدية. وسيخلق الله سبحانه خيرات كثيرة مما تعانيه كالأمم السابقة، وسينعم عليها بالفرج والنصر بعد اجتيازها

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٥١-١٦٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٣٥-١٤٥؛ وجاء في الخبر: "قال جبريل: تقدّم يا رسول الله، ليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوت أنملة لاحترقت". (تفسير الميزان للطباطبائي، ١٣/١٨.)

(٣) انظر: سورة القصص: ١-٣٥.

(٤) انظر: سورة النساء: ١٥٨.

هـــذه الحوادث الجســـام التي يبدو ظاهرها كريهاً مؤلِما.

فكل حادثة ببدايتها ونهايتها تنطوي في العلم الإلهي على أسرار كثيرة كهذه. فالله ﷻ الذي هو الأول والآخر والظاهر والباطن عليم بجهة الملك والملكوت بكل شيء. والقدر هو عنوان ذو أسرار لعلمه هذا، وبكيفيته هذه فالقدر اسم آخر لحقيقة اللوح المحفوظ.

٢. القضاء والقدر من حيث الكتابة

إن تقدير الله سبحانه لما سيحدث في المستقبل وتعيينه له مسبقاً وظهوره في حينه كتابةٌ تخص القضاء والقدر من حيث العلم الإلهي، وكون الأشياء مكتوبة في أثناء وقوعها كتابةٌ أيضاً، ولها علاقة بمحاسبة الإنسان على أعماله.

نعم، إن كل ما يحدث ويجري وكل ما في حياتنا من أحداث إنما يُسجل ويُكتب آناً بآن وكأنه معلّق على شريط الزمان ليلاً ونهاراً. ونحن نطلق على هذا "التقدير اليومي".

إن مع كتابة ﴿كِرَاماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الانفطار: ١١-١٢) هناك كتابة استنساخ لوحات قدرية أيضاً من "إمام مبين"، في "كتاب مبين". والكتابة الأولى توضحها الآية الجليلة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾(الإسراء: ١٣). بمعنى أن هناك كتابة علمية ليست لها وجود خارجي والتي نُطلق عليها اسم "اللوح المحفوظ"، وكتاب آخر يكتبه الملائكة الكرام والذي له وجود خارجي يُسجَّل فيه كل ما يعمله الإنسان. وفي الحقيقة إن الكتابين مطابقان تماماً حرفاً بحرف دون فرق مهما كان ضئيلاً. أي أن الإنسان لا يعمل إلاّ ما قُدّر له مسبَقاً، إلاّ أن إرادتنا هي السبب في إلباس الكتاب الذي ليس له إلاّ وجود علمي وجوداً خارجياً، حيث إن الكتابة الثانية أُخذت فيها إرادتنا بنظر الاعتبار.

وفي أثناء المحكمة الكبرى سيُحكم على الإنسان وفق مقابلة الكتابين معاً. وسيظهر أن كلاً من الكتابين هو عين الآخر، حيث سيقول المَلَك الكريم يا ربي قد كتبتُ كذا وكذا، وسيُظهر الرب الجليل كتاباً آخر ويقول: لقد كتبتُ هذا لعلمي بما سيفعله". أي أن أحد الكتابيْن بيد المَلَك والآخر بيده ﷻ جل وعلا. فما يسجله هؤلاء الكرام الكاتبون الذين هم رفيعو الشأن المنـــزَّهون عن التوافه، والذي لا يرقى الشك والشبهة إلى كتابتهم قط، هو جهة أخرى من القضاء والقدر.

نعم، إن الله ﷻ يضع خطة كل شيء وبرنامجه، ويمنحه "وجوداً علمياً". ثم يمنح هذا الوجود العلمي "وجوداً خارجياً" بتعليق قدرته وإرادته عليه. لذا يكتب كل شيء أولاً على وفق الوجود العلمي. ثم يعمل الإنسان أعماله موافقةً تماماً لما جرى عليه ذلك الكتاب، وهذا ما يكتبه الملائكة الكرام.

لنحاول أن نوضح هذه المسألة في ضوء الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء: ١٠٥) فالذكر يعني: النصيحة، أما هنا فيأتي بمعنى التوراة، أو اللوح المحفوظ في معنى أشمل. وعلى هذا المعنى يمكن أن توضح الآية الكريمة كالآتي: إن الله سبحانه بعد ما كتب في اللوح المحفوظ ما كتب، كتب في الكتب المرسلة إلى الأنبياء مستنسخات من اللوح المحفوظ وهي: أن عبادي الصالحين يرثون الأرض، أي العباد الصالحون هم الوارثون الحقيقيّون الدائمون في الأرض. أما حاكمية الآخرين للأرض فهي عابرة خاطفة؛ إذ الحاكمية الدائمة على الأرض بالتجدد المستمر إنما هي حاكمية العباد الصالحين وما يتشكل منهم من أمم صالحة ومجتمعات صالحة. ولقد تقرر هذا قانوناً في اللوح المحفوظ، وسُجّل في الزبور نقلاً منه. أجل، إن الزبور غير المحرّف الذي أُرسل إلى سيدنا داود عليه السلام فيه هذا القانون.

نعم، ربما تظهر نظم -مما لا يرضى به الله- في الشرق والغرب، ويظهر

فراعنة ومتمردون في كل مكان، ولكن لفترة معيّنة ولمدة عابرة. فهذا لا يخالف القانون المكتوب في اللوح المحفوظ وفي الزبور والذي أخبر عنه القرآن الكريم. لأن الميراث المذكور هو الميراث الدائم والحاكمية المستمرة لمدة طويلة. أما ظهور حاكميات غير الصالحين بصورة مؤقّتة، فهو مبني على حكمة إلهية وهي إيقاظ المسلمين وتذكيرهم ليبادروا إلى الاتفاق فيما بينهم. وهذا قانون إلهي لا يقدر على تبديله أحدٌ قط.

فذوو الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو من لهم نصيب وافر منها هم الذين يحكمون في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد إلى المسجد أو ما شابه ذلك، بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة. وبهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات. وبها أيضاً المحافظة على التوازن التام بين سبر غور الأنفس والتفكر في سعة الآفاق.. وبمعنى أوسع إن من يقدر على إدراك الخلود فهو الذي يحقق الصلاح بمعناه الحقيقي.

ولا يمكن أن يحقق هذا المعنى الواسع للحاكمية، الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم، ويرتكبون الجرائم تلوَ الجرائم، ويستغفلون الناس – ولاسيما الشباب– بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويعتدون بعقولهم تاركين الشورى فيما بينهم... هؤلاء لا يمكنهم قطعاً أن يؤسسوا هذه الحاكمية –بمعناها الحقيقي– وسيفيقون من غفلتهم يوماً من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يندَمون، حيث يدركون تخبطهم في ظلمات دامسة، فيعترفون بخطئهم.

نعم، إن الإنسان الذي خلق مكرماً سيجد الطريق السوي يوماً ما، إذ بخلافه يكون هذا القانون خطأ –والعياذ بالله–. ومن المعلوم أن القانون لا يتبدل، إذ: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم: ٣٠). إلاّ أنه سبحانه له قانون آخر وهو ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد: ١١). فالله

سبحانه لا يذلّ أمة عزيزة كانت تاجاً على الرؤوس إلاّ إذا غيّرت الأمة ما في داخلها. فهذا القانون سار في المعنى الإيجابي والسلبي على السواء. لذا ينبغي الحفاظ على النفس، والتعمق فيها، والسعي لإدراكها. فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج.

والذين أدركوا مضمون التقوى والإحسان في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل: ١٢٨) أصبحوا في معية الله سبحانه. ترى ماذا يعني الإحسان؟ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. الإحسان هو نور الباطن... هو عمق المشاعر... هو سعة الأحاسيس... هو إحراز ملَكة النفوذ إلى الباطن دون الوقوع في قبضة أنانية النفس... هو الشروع بالفتح الخارجي من الداخل، والحفاظ على الفتح في كل مرحلة من مراحله... وبتعبير آخر هو بلوغ الصلاح الكامل.

لقد ذكرنا هذا الكلام استطراداً لنبين أن هذا القانون وأمثاله مكتوب في اللوح المحفوظ ولن يتبدّل قط. ولأهمية هذه المسألة –من دون تخطي حدود علاقتها بالقدر– نذكر الآية الكريمة الآتية:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور: ٥٥).

إن الله سُبْحَانه يعِد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن هذا وعد الله، ووعده صادق بلا ريب. لأنه محال أن يُخلف وعده، وهو القادر على أن يفي به، فهو الحاكم على كل شيء. ولا شك أنه سيحقق ما وعده من الإستخلاف، وسيستخلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الأرض. وعندها ستكون دفة الحياة الاجتماعية بأيديكم، وتنتظم الحياة الاقتصادية

بتنظيمكم أنتم، وستدخل التربية الفردية والأُسرية في نظام جديد. نعم وحينها ستديرون العالم. فالأمر ينتهي بكم وإليكم، فالذين يقتسمون العالم فيما بينهم حول الموائد المستديرة اليوم لن يتخذون قراراً إلاّ وينظرون إلى ملامح وجوهكم ونظراتكم. وستتخذ جغرافية المجتمع أشكالها حسب أوامركم، بل سيحاولون أن يستشفوا المعاني من نظراتكم وإيماءاتكم، وستكونون -كما كنتم في التاريخ- أصحاب الأمر في نصب أحدهم أو عزله. وسيجد الملوك أمانيهم على أبوابكم، ويتلقون كلامكم أوامرَ لهم. فما تقولونه أنتم سيتحقق حتماً، وما ترفضونه يُرفع ويزال حالاً. فأنتم هم من استخلفهم المولى الكريم من سلطان في ذلك اليوم...

وهذا ليس كلاماً غير واقعي وخيالاً وأماني... لأن الذين فازوا بالصلاح في الماضي بلغوا هذه الذروة، وهو قانون إلهي نافذ في كل زمان ومكان. فأنتم متى ما حققتم الصلاح في أنفسكم ستتحقق النتائج وتكون مقدّرة حتماً.

بمعنى أن هناك كتابتين:

الأولى: الكتابة المكتوبة في اللوح المحفوظ. فكل شيء موجود في اللوح المحفوظ بوجوده العلمي.

والثانية: كتابة الحوادث التي ترد إلى الوجود تترى ومتعاقبة أي توجد من حيث الوجود الخارجي. أما الأعمال الإرادية التي فيها، فهي التي تقوم عليها المحاسبة حيث تعود إلى الإرادة نفسها. حيث إن الآية الكريمة تذكر الكتابتين معاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس: ١٢). فجميع ما قام به الإنسان من أعمال وما خلّفه من صدقات جارية مكتوبة كلها دون استثناء، فهذه هي الكتابة الثانية، علماً أن كل شيء قد كتب بوجوده العلمي مسبقاً كما هو واضح في الآية الكريمة نفسها: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ دون إهمال شيء قط، كما تبينه الآية الكريمة:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام: ٣٨).

وقد فسّر معظم المفسرين "الكتاب" الوارد في الآية الكريمة بـــ"اللوح المحفوظ" رغم أن بعضهم فسّره بـــ"القرآن". وقد ورد حديث شريف حول الكتابة الثانية للأفعال الإرادية وأنها تعقب الكتابة الأولى وهو: «كان الله ولم يكن شيء غيرُه، وكان عرشه على الماء، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كلَّ شيء»[1] فكل شيء يُكتب حسب تسلسل حدوثه، وهذه الكتابة تشكل الوجه الثاني للقدر.

٣. القضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية

القضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية يمكن أن يكون كالآتي:

أولاً: المشيئة الإلهية في الآيات الكريمة

إن كلمة شاء، يشاء، مشيئة، تعني الإرادة وهي من الكلمات الواردة في القرآن الكريم بكثرة. وعلاقة المشيئة الإلهية بالقدر تضفي على القدر بعداً آخر.

إن المشيئة الإلهية هي الأصل في وقوع الحوادث وظهور الأشياء، فالقرآن الكريم يذكّرنا بهذه الحقيقة في كثير من آياته الكريمة، سنذكر قسماً منها:

آ. ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ۞ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾(الكهف: ٢٣-٢٤) بمعنى عندما تعزم على شيء لتفعله، عليك أن تتخذ المشيئة الإلهية أساساً له وتربطه بإرادته سبحانه. وفي الحقيقة إنك لا يمكن أن تقوم بشيء ما لم يشأ هو سبحانه. وعلى الإنسان ألاّ يغيب هذا عن باله عندما ينوي الشروع بأي عمل من أعماله.

---

(١) البخاري، بدء الخلق ١؛ الترمذي، تفسير سورة المائدة (٥) ٣.

ولمناسبة هذه الآية الكريمة يعلّمنا الرسول الكريم ﷺ الحادثة الآتية:

عن أبي هريرة ﷺ قال: "قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفنّ الليلةَ بمائة امرأةٍ، تلد كلُّ امرأة غُلاما يقاتل في سبيل الله. فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلمْ يقُل ونسي. فأطاف بهن، و لم تلد منهن إلا امرأةٌ نصفَ إنسانٍ. قال النبي ﷺ: لو قال إن شاء اللهُ لم يَحنَثْ، وكان أرْجَى لِحاجته".(١)

نعم، إن على الإنسان أن يعتقد جازماً أنه ليس بمقدور أحد فعل شيء ما لم يشأه سبحانه. فالإنسان الخبير بالبعد اللدنّي للأشياء والقادر على الإنصات إلى عالمه الداخلي، يعتقد بهذه الحقيقة، وعليه أن يعتقد بها، بما لا يمكن أن يرد خلافها إلى خلده ولو بمقدار ذرة.

إننا عندما ننظر إلى الأشياء والحوادث وعلاقتِنا بها، ندرك ونرى بيقين أننا لا نستطيع حمل قشة صغيرة ما لم يشأ الله سبحانه ذلك. بل يحدث بعض الأحيان أننا بعد أن نهيئ المقدمات جميعها ونفكر بالمسألة بأوجهها كافة، ونخطط وفق ذلك حتى نعتقد أننا استكملنا الشروط كافة، وإذا بنا نشاهد أن الأمر قد انقلب على عقبيه باحتمال لا يخطر على بال. بمعنى أن لو كانت الاحتمالات محسوباً حسابها جميعاً ولكن المشيئة الإلهية لم تتعلق بها، أي إن لم يشأ سبحانه تحقق ذلك الشيء بالشكل الذي نريده، لا يتحقق قطعاً حتى لو استكملت الشروط الظاهرة. وهكذا تذهب خططنا أدراج الرياح. فالآية الكريمة تعلّمنا ذلك: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(الإنسان: ٣٠). أي إن إرادته سبحانه نافذة حتى لو بذلتم كل البذل وأردتم بكل إرادتكم، فكلّ ذلك لا يعني شيئاً إن لم يرده هو سبحانه، فالجهود تذهب هباء، إن لم تتعلق الإرادة الإلهية بذلك الشيء. ولكن كثيراً ما يلطف بنا سبحانه فيقبل الأسباب –هكذا تجري العادة الإلهية– وإرادة الإنسان بمثابة دعاء. وهكذا المشيئة الإلهية تتعلق بكل شيء وبكل أجزاء الحوادث، فهي مندمجة معها اندماجاً كلياً.

---

(١) البخاري، النكاح ١١٩، الجهاد ٢٣؛ المسند لأحمد بن حنبل، ٢/٥٠٦، ٢٧٥، ٢٢٩.

فالمشيئة الإلهية تظهر نفسها في جميع جهات الحياة وفي كل صفحة من صفحات حياة الإنسان كما تعبّر عنها الآية الكريمة الآتية:

ب. ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(البقرة: ٢٥٣).

فلولا مشيئة الله إذن لما قدرتم على القيام بعمل شيء مهما كان. فمثلاً لو شاء الله ما تقاتلتم. ولكن لأنكم تتقاتلون فإن أعمالكم الإيجابية أو السلبية –سواءً أكانت لكم أو عليكم– مرتبطة بمشيئته سبحانه كلياً. فما شاء الله كان ولا يُسأل سبحانه عمّا فعل ويفعل، ولا يستشير أحداً في ما فعل ويفعل. فالحديث الشريف الآتي قاعدة مقررة: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن".[1] فما شاء الله كان ويحظى بالوجود، وما لم يشأ (أي ما شاء ألاّ يكون) لا يكون.

وهنا أمر ملفت للنظر وهو: تعلق مشيئته سبحانه بالعدم. ولهذا فما شاء الله كان، وما يشأ ألاّ يكون لا يكون. نعم إن المشيئة الإلهية تتعلق بالوجود والعدم. وإلاّ ليس الأمر كما يقوله البعض: إن المشيئة الإلهية إذا تعلقت بشيء يكون وإن لم تتعلق لا يكون، فهذا الأمر خطأ في الفهم. فليس هناك عدم تعلق المشيئة الإلهية بشيء إطلاقاً. لأن العدم كالوجود وفي قبضة مشيئته سبحانه.

فلو استوعب المعتزلة والجبرية فحوى الحديث المذكور وما فيه من معانٍ دقيقة لما وقعوا في الورطات التي وقعوا فيها. حيث إن الرسول الكريم ﷺ يوضح الأمرين معاً بـــ"الكينونة".

---

(١) أبو داود، الأدب ١٠٦.

والمشيئة أيضاً هي الفاصلة في مسألة الإيمان والهداية. فالذين ينظرون إلى هذه المسألة من هذه الزاوية يقولون: إن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده، بعد صرف الجزء الاختياري. بمعنى أنت تسعى وتبذل الجهد والله سبحانه يخلقه. نعم، إن ذلك النور لا يمكنك أن تشعله في نفسك ولا تستطيع أن تديمه إلى الأبد، فذلك النور ليس إلاّ الله يشعله إذا شاء ويضيئه في قلبك إذا أراد. والدليل على ذلك:

ج. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس: ٩٩). أي لو شاء الذي رباك وأبلغك الكمال وهو الحاكم على كل شيء، لهدى الناس كلهم. وهناك آية أخرى في هذا الباب:

د. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(الأنعام: ٣٥). إن هذا التنبيه الإلهيّ لشخص الرسول ﷺ إنما هو تنبيه تجاه جميع الانحرافات التي في مسألة القدر. نعم لو شاء ربك لهداهم جميعاً، ولسجد الناس كلهم. فكان الناس كلهم ذوي وجدان منور ويحظون بالعبودية الخالصة لله ويكونون مكرمين بالإيمان والإسلام. ولكن مشيئة الله غير هذا. فلم تتعلق بهذا النمط من الهداية ولهذا لم يحدث هذا.

هـ. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة: ٤٨).

نعم لو شاء ربنا لجعل الناس كلهم أمة واحدة، ولكن المشيئة الإلهية

أرادت أن تكون أمماً عديدة متميزة. ولهذا ظهرت الأمم هكذا متمايزة بعضها عن البعض، للابتلاء والامتحان.

أما حاكمية الدول ودوامها وتعاقب الحكام في هذه الدول ما هي إلاّ بمشيئة الله، والآية الكريمة التي توضح هذه هي:

و. ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران: ١٤٠). فالآية الكريمة تعبّر عن المشيئة الإلهية رغم أن الكلمة لا ترد فيها صراحة. لأن ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ تبيّن بوضوح أن تبدل أحوال الناس ومواقفهم وأطوارهم هي بأمرٍ إلهي وفي قبضته سبحانه. فالأيام تتداول وتتعاقب بيده بكل سهولة. ولكن يا ترى ونحن نذكر جميع هذه الأمور فهل يعني هذا نفيٌ للإرادة الإنسانية؟ الجواب: كلا. ولكن لا نتطرق حالياً إلى ذلك الموضوع. لأننا نبحث هنا في الآيات المتعلقة بالمشيئة الإلهية... وهناك آية أخرى:

ز. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾(النساء: ١٣٣). نعم، إن الله ﷻ لقادر على أن يُذهبكم ويأتي بآخرين بدلاً منكم؛ فكما أذهب الصحابة الكرام ثم الأمويين ثم العباسيين ثم السلاجقة ثم أتى بالعثمانيين، فأذهبهم أيضاً، فأصبحت الأمانة الكبرى، الميراث المقدّس، تنتظر المؤتمنين الجدد، ترى مَنْ من هؤلاء لهم اليد الطولى في هذا الأمر؟ وكم هي حصة العقل والدهاء في هذا الميدان؟ وكم مَن حاول منهم أن يحول دون السقوط والانعدام؟ فالقانون الإلهي الذي لايتبدل هو مدى رعايتهم للشروط العادية –الأسباب– التي وضعتها المشيئة الإلهية، إذ رعايتهم لها على جانب عظيم من الأهمية في البقاء والوجود وتحمّل أعباء الدين والذود عنه. ويمكن أن نورد أمثلة كثيرة من التاريخ حول صعود الأمم وسقوطها. ولكن لا نتطرق إليها هنا لئلا نخلّ بحدود مسألتنا التي نحن بصددها.

نعم، إن أعظم قضية على سطح الأرض هي الحفاظ على الدين، لأن الدين هو الذي بيّن غاية الحياة ونتيجتها، وهو أيضاً وضع أفضل الأسس وأعدل الموازين في العلاقات بين الناس. فالحفاظ على هذه العلاقات هي ضمان لأفضل وأكمل حياة للناس وليس فقط لوجودهم. بينما دفع الناس إلى تذويب ماهيتهم الحقيقية والفطرية وإبعادهم عن شخصيتهم الذاتية وصهرهم في أنظمة أجنبية وثقافات غريبة عليهم يجعلهم محرومين من طاقاتهم الذاتية ويسوقهم إلى الاستجداء على أبواب الآخرين. علماً أن منبع جميع الفضائل والحسنات هو الدين.

فمهما ابتعد الإنسان عن الدين فإنه يستشعر دوماً في باطنه بالفراغ الذي يتركه الدين. وأيّما أمة ابتعدت عن الدين وأعرضت عنه انقلب بنيانها المعنوي والمادي وأصبح عاليه سافله. إن الدولة الكافرة ربما تملك اقتصاداً قوياً، ولكن لا يمكن أن تجد الأمم المتدينة التي أعرضت عن الدين مثل ذلك الاقتصاد. ذلك لأنهم لم يراعوا قسماً من الأسباب التي وضعتها المشيئة الإلهية كشرط أول لحياتهم. فالآية الآتية توضح هذه النقطة:

ح. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة: ٥٤).

فكلمة "ارْتدّ، يرْتدّ" تعني الرجوع إلى الخلف، أي الرجوع عن الدين. فالقرآن يخاطب كل مؤمن بهذه الكلمة بما تتحمله من معاني: الارْتداد عن العقيدة، الارتداد عن العمل، حتى الارتداد عن التصور والارتداد عن التفكر... وهكذا هناك معان أخرى كثيرة.

فالفرد -أو الجماعة- الذي بلغ مستوى معيّناً في حياته الدينية وأصبح جزءاً لا يتجزأ من الدعوة إلى الله، عندما يجد نفسه أمام هذه الآية الكريمة

يستشعر بأنها تهدده بالرجوع إلى الحالة السابقة، أي قبل الإيمان. لأن المراحل التي كسبها الفرد –أو الجماعة– هي لطف إلهي فحسب. فلو أرخى الفرد – أو الجماعة– عنان المثابرة على العمل و لم يتمكن من المحافظة على الحيلولة دون التقهقر المعنوي، فسوف يسلب الله سبحانه منه هذه الدعوة ويسلمها إلى شخص آخر أو جماعة أخرى.

وكذا الدولة إن كانَت قَد جعلت روح الحياة هو الدين وتمتثل هذا الأمر، فالأمة بكاملها تكون المعنية بالآية الكريمة. والتهديد موجّه إليهم جميعاً. إذ الأمة التي أعزّها الله باتخاذها الدين حياة لها، لو سحبت يدها عما أعزّها الله به ستتردّى رأساً على عقب بلا ريب ويعزّ الله أمة أخرى.

ويُلاحظ في كلمة ﴿بِقَوْمٍ﴾ تنوين التنكير. أي أيّ قوم كان، وربما هم مجهولون لدى الناس ولا يخطرون على بال أحد. ولا يُعلم متى يظهرون وبأي ظروف يأتون. إلاّ أن أوصافهم معيّنة. إذن فسيتسابق كل قوم ليكون هو القوم الذي أثنى عليه الله. فكما لا يمكن أن يدّعي قوم من الأقوام أننا المعنيون بالآية، لا ييأس أي قوم كان عن الاتصاف بتلك الأوصاف.

وأوصاف ذلك القوم هي الآتية:

الصفة الأولى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ الله. حيث يضع سبحانه في قلوب الناس حسن الظن بهم. "عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: إذا أحب الله العبدَ نادى جبريلَ إن الله يحب فلانًا فأَحْبِبْه، فيحبه جبريل؛ فينادي جبريلُ في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأَحِبُّوهُ، فيحبه أهل السماء؛ ثم يُوضَع له القبولُ في الأرضِ".[1] وعندها يرقب الجميعُ ما تشير إليه عيونهم، ويؤثر فيهم كلامهم، بل كل ما يقترحونه يُتلقى أمراً، وحالما يأمرون ينفذ فوراً ويستقر في القلوب والوجدان.

(١) البخاري، بدء الخلق ٤٦؛ مسلم، البر ١٥٦.

الصفة الثانية: ﴿يُحِبُّونَهُ﴾ لا جرم أن قياس محبة الله لهم وعلامتها هي حبّهم الله. فمن كان يحب الله، بأي نسبة كانت محبته فهو محبوب عند الله بنفس النسبة. أي إنهم عشاق الله.

الصفة الثالثة: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يرون المؤمنين جميعاً أرقى منهم ولا يترددون أن يضعوا رؤوسهم تحت أقدام المؤمنين. وكلما تواضعوا لله هكذا، رفعهم الله.

الصفة الرابعة: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلا يخضعون لهم ولا ينحنون أمامهم، بل هم في جهاد ونضال معهم دائماً. وبقدر تواضعهم للمؤمنين فهم أعزاء على الكافرين.

الصفة الخامسة: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في كل زمان ومكان، وحسب ظروف ذلك الزمان والمكان. إذ الجملة فعلية تدل على التجدّد، أي أنهم يتحركون ببصيرة وفراسة.

الصفة السادسة: ﴿لاَ يَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾ إذ لا يخافون إلاّ الله، فلا يحسبون لكلام الآخرين حساباً، ولا يبالون به. حيث لا يفكرون إلاّ بأمر الله ورضاه.

وهكذا فهذه الصفات هي التي تتصف بها الجماعة المثالية. فمن اتصف بها منحه الله سبحانه الأمانة المقدسة. وهذا قانون إلهي لم يتبدل ولن يتبدل.

فإن اتصف بها العرب فهم الذين يحملون الأمانة، وإن اتصف بها الترك تعطى لهم الأمانة وكذا الكرد والبوشناق والألبان.. فأيّمَا قوم اتصفوا بها فهم الحقيقون بالأمانة.

وهناك آية أخرى تضم قواعد وأسساً عامة وشاملة:

ط. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٦)

نعم، إن أيَّ أمة ليس لها من يمثلها محكوم عليها بالتشتت، وإن لم يربط الملوك قلوبهم بمالكهم الحق وهو الله سبحانه، فتلك الأمة لا تستوي على ساقها ولن تقف منتصبة على قدميها مدة طويلة.

وكأنما يبدو هنا ذل بعدم إظهار الإرادة من جهة، وكأن البقاء ليس إلاّ بالإرادة من جهة أخرى. فالإرادة التي تظهر وتبرز ستكون علامة حاكميتنا وشارتها، والمحافظة عليها يكون بالالتجاء إلى الله سبحانه في كل فعل. وهكذا وجدان هذه الموازنة مرتبط بالإدراك التام للقدر والإرادة "الجزئية" ولاسيما المشيئة الإلهية التي أسميناها "البعد الثالث للقدر".

لقد شاهدنا وأدركنا في الآيات الكريمة المذكورة: أن المشيئة الإلهية قد أحاطت بالحياة كلها دقّها وجلّها، فمشيئته سبحانه قد أحاطت بكل شيء. بل حتى العدم عبارة عن تجلّي المشيئة في تلك الجهة. فهو سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(هود: ١٠٧؛ البروج: ١٦). فلا يمكن أن يحصل شيء دون إرادته جل وعلا.

علماً بأن المشيئة الإلهية قد تتجلى رحمةً وأخرى عذاباً. كلٌّ في حينه. والآيات الكريمة الآتية تبين لنا هذا الأمر:

ي. ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾(الإسراء: ٥٤).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق: ١٦).

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة: ٢٨٤).

نعم، إن الأنبياء ما فتئوا يترنمون بالمشيئة الإلهية. والقرآن الكريم يشهد على هذا الترنم:

ك. ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٨).

بمعنى أن المشيئة الإلهية هي الأساس في كل شيء حتى أنني لا أملك نفعاً ولا ضراً لنفسي فكيف بالآخرينبـــم ينفعوني، إلاّ ما شاء الله.

والرسول الكريم ﷺ قد استسلم إلى المشيئة الإلهية استسلاما تامًّا حتى أنه قال: "سَدِّدوا وقَاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخل أحَدًا الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ بمغفرةٍ ورحمة".(١)

فهذا هو ميزان الرسول الكريم ﷺ. أمام المشيئة الإلهية وهكذا يعلّمنا إياه. وكل شخص عليه أن يزن نفسه وعمله بهذا الميزان.

نعم، إن كان الرسول ﷺ بهذا الوضع أمام المشيئة الإلهية، فكيف بالآخرين؟ بهذا الاستسلام وبهذا الإدراك يرتفع الإنسان إلى أعلى عليين، ويجول رأسه في آفاق السماء. ونحن نوصي الذين يرددون دوماً: "لقد عملنا من الصالحات الشيء الكثير فإن لم ندخل الجنة فمن سيدخلها غيرنا"... وأمثالها من العبارات الدالة على الغرور والكبر، نوصيهم أن يتخذوا الحديث الشريف المذكور وطور الرسول العظيم ﷺ -وهو النبي العظيم أمام المشيئة الإلهية- مثالاً ونموذجاً لهم. بمعنى أن الاستسلام للمشيئة الإلهية ينجي الإنسان من الكبر والغرور أيضاً. فالمؤمن إذن مضطر إلى قبول المشيئة أساساً في كل عمله. لأن المشيئة الإلهية قد أحاطت بكل شيء ظاهراً وباطناً، فلا شيء خارجها قط.

لا شك أن إدراك المشيئة الإلهية بمقاييسها المطلوبة يحتاج إلى مستوى معين من العلم. ومن الصعوبة بمكان لمن لم يبلغ هذا المستوى أن يفهم المشيئة الإلهية

---

(١) مسلم، صفات المنافقين ٧٦.

حق فهمها، بل حتى يكون ذلك محالاً. أليست هذه المسألة هي إحدى المسائل التي لم يدركها حق الإدراك المجتمعات التي أُرسل إليها الأنبياء جميعاً، فأعرضوا عنهم؟

والقرآن الكريم يوضح في مئات من الآيات الكريمة "المشيئة" بوجوهها المتنوعة مورداً الأمثلة من الأنبياء وأقوامهم. فهذه المسألة "المشيئة" ترد في القرآن الكريم بأبعاد كثيرة اعتقادية تصورية عملية وغيرها.

وسيدنا نوح عليه السلام مثال بيّن في هذه المسألة، إذ يبين القرآن الكريم الذين عارضوا سيدنا نوحًا عليه السلام وهوّنوا من تهديداته. فتقول الآية الكريمة:

ل. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(هود: ٣٢) وأجابهم سيدنا نوح بالآتي:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۞ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(هود: ٣٤، ٣٣).

وهكذا يشير سيدنا نوح عليه السلام في جوابه هذا إلى حقيقة: أن الإرادة الإلهية هي فوق جميع الإرادات. فكأنه يريد أن يقول لقومه: إنني لست أنا المنـــزل بذلك العذاب عليكم، فلو كنت أستطيع أن أعذّب أحداً لما كان أحدٌ يجرأ على الاعتراض عليّ ولذهب سر الامتحان أدراج الرياح. بينما أنتم باستخدامكم ما وهب لكم ربكم من إرادة جزئية فإما تستسلمون أو تعرضون عنه. ولكن لو أراد الله أن يغويكم بسر الامتحان فإن كلامي لا ينفعكم حتى لو كان من جواهر ثمينة –وفعلاً كلام الأنبياء أغلى من الجواهر–. لأن مشيئته أعلى وأسمى من أيّ تقدير وتكليف. فهو ربكم، يفعل ما يشاء وكيفما يشاء، وإليه مرجعكم حتى لو لم تشاءوه. وليس لديّ إلاّ الدعوة والإرشاد والنصح. فأنا وأنتم أمام المشيئة سواء. فهذه الآية الكريمة وأمثالها تبين أشكالاً متنوعة من مواقف الأنبياء أمام المشيئة الإلهية.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام أيضاً يعلّم قومه المشيئة الإلهية في أثناء دعوة قومه إلى التوحيد:

م. ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠).

فَسيّدنا إبراهيم يقول: إنني لا أخاف ما تشركون به، إلاّ أنني أخاف مما يشاء ربي. أي أخاف من حكمه عليّ. وإلاّ فلو انفلقت الكائنات كلها على رأسي لما أخافتني قط لأنني على يقين بأن أحداً لا يضرني بشيء إلاّ أن يشاء الله.

فهذا الدرس، درس التوحيد، الذي أورده سيدنا إبراهيم عليه السلام يؤكد على المشيئة الإلهية بوضوح.

ن. ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾(الصافات: ١٠٢) هو جواب سيدنا إسماعيل تجاه ما اقترحه عليه والده عليه السلام. ويعقب ذلك مباشرة: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(الصافات: ١٠٢) مشيراً إلى المشيئة الإلهية. أي أنه يربط صبره بالمشيئة الإلهية. فلا يكون صبره إلاّ بمشيئته سبحانه.

إن سيدنا موسى عليه السلام يقول: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾(الكهف: ٦٩) في جوابه لسيدنا الخضر في أثناء سياحتهما وتجاه قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾(الكهف: ٦٧).

وها نحن نشاهد مدى التشابه في تعابير الأنبياء وأقوالهم. فكلهم جميعاً ينطلقون من المشاعر والإدراك نفسه، ويقولون الشيء نفسه، ذلك لأن استسلامهم للمشيئة واحد.

س. يقول سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩). يقوله لأبويه عند دعوتهما إلى مصر، ولا ينسى المشيئة الإلهية.

فإذا نظرنا إلى أي نبي من الأنبياء عليهم السلام نجد أن المشيئة في سلسلة العقيدة عندهم واضحة بيّنة، وذلك من تعليم الله إياهم.

نعم، إن مشيئة الله هي كل شيء، وهي الأساس بالنسبة لإرادة الإنسان، وردُّها ليس إلاّ إشراك بربوبيته تعالى، إذ يعني ذلك إعطاء قسم من الإجراءات إلى غيره تعالى.

ثانياً: المشيئة الإلهية في الأحاديث الشريفة

آ- يروي أحمد بن حنبل "عن طفيل بن سَخْبَرَة أخي عائشة لأمّها، أنه رأى فيما يرى النائمُ، كأنه مرَّ برهط من اليهود فقال: "من أنتم؟" قالوا "نحن اليهودُ". قال "إنكم أنتم القومُ لولا إنكم تزعُمون أن عزيرا ابنُ الله!". فقالت اليهودُ: "وأنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاء اللهُ وشاء محمدٌ". ثم مر برهط من النصارى فقال: "من أنتم؟" قالوا "نحن النصارى". فقال: "إنكم أنتم القومُ لولا أنكم تقولون المسيحُ ابنُ الله!". قالوا: "وإنكم أنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاء الله وما شاء محمدٌ". فلما أصبح أخبر بها مَن أخبر، ثم أتي النبي ﷺ فأخبره فقال: هل أخبرتَ بها أحدا؟ قال عفَّانُ قال: نعم. فلما صَلَّوْا خَطَبَهم فحَمِد اللهَ وأثنى عليه ثم قال: إنّ طُفَيْلاً رأى رؤيَا فأخبر بها من أخبر منكم وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يَمْنَعُني الحياءُ منكم أنْ أَنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاء اللهُ وما شاء محمدٌ".[1]

نفهم من هذا الحديث الشريف أن المشيئة الإلهية هي الأساس، ولا دخل لأحد فيها غير الله سبحانه، بل إن نية الإنسان بكون غير الله سبحانه نافعًا وضارًّا يجرّ ذلك إلى الكفر والإشراك.

ب- مثال آخر حول الموضوع نفسه

"عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئتَ. فقال له النبيُّ ﷺ أجَعلْتَني واللهَ عَدْلاً؟! بل ما شاء اللهُ وَحْدَه".[2]

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٥/٧٢.

(٢) المسند لأحمد بن حنبل، ١/٢١٤.

فالرسول ﷺ يحمل توحيداً واضحاً في التصرف الإلهي بحيث لا يدع أحداً مهما كانت نيته إلاّ وينبهه على خطئه في عدم إدخال أحد في التصرف الإلهي قط.

ج- عَنْ أَنَسٍ قَالَ "كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول يا مُقلِّبَ القلوب ثبِّتْ قَلْبي على دينك. فقلتُ: يا رسول الله آمَنَّا بك وبما جئْتَ به، فهَلْ تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين أُصْبُعَين من أصابع الله يقلِّبُها كيف يشاء".(١)

ونجد سبب إكثاره ﷺ من هذا الدعاء في هذه الرواية:

"عن شَهْرُ بن حَوْشَبٍ قال قلتُ لأمّ سلَمة: يا أمَّ المؤمنين ما كان أكْثرُ دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالتْ: كان أكثرُ دعائه "يا مُقلّب القلوب ثبّت قلْبي على دينك". قالتْ فقلتُ: يا رسولَ الله ما أكثرَ دعاءك "يا مُقلّب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك"؟ قَالَ: يا أمَّ سلَمة إنه ليس آدميٌّ إلاّ وقلبُه بيْن أُصْبُعيْن مِنْ أصابع الله، فَمَنْ شاء أقامَ ومَن شاء أزاغ".(٢)

وفي رواية نواس بن سمعان "قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ما مِنْ قلْبٍ إلاّ بيْنَ إصبعيْن مِنْ أصابع الرّحمن، إن شاء أقامَه وإنْ شاءَ أزَاغَهُ".(٣)

وفي الحقيقة أن الله سبحانه يعلّمنا دعاءً مثل هذا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران: ٨).

ولا شك أن جميع الأدعية تثبت المشيئة الإلهية، حيث إننا نعتقد مقدماً أن الله قادر على استجابة دعواتنا كما أننا نعتقد أنه هو الذي يلهمنا الدعاء إن شاء. وبهذا يكون كل دعاء بمعنى الاعتراف بالمشيئة الإلهية والتي تمثل أحد أبعاد القدر. ولقد وقفنا كثيراً عند هذه المسألة لعلاقتها القوية بالتوحيد.

---

(١) الترمذي، القدر ٧.

(٢) الترمذي، الدعوات ٨٩.

(٣) ابن ماجة، المقدمة ١٣.

ثالثاً: مسألة الأمر الجبري والأمر الشرعي

سنتطرق إلى مسألة أخرى تتعلق بالموضوع نفسه، جاعلين المسألة المعقدة سهلة كي يفهمها القاصي والداني. والآية الكريمة الآتية يمكن أن تكون مقدمة للموضوع الذي نبحثه، وهي: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾(الأعراف: ٥٤).

نعم، فكما أن الأمر والخلق يخصه تعالى فالحكم والخلق له وحده. وأمر الله سبحانه على قسمين:

الأول: الأمر الكوني، الأمر الجبري أو الأمر التقديري.

الثاني: الأمر الديني أو الأمر الشرعي.

والأمر الجبري هو الحاكم في الكون، فما يخلقه سبحانه يخلقه على الأمر الجبري. فلا دخل لأحد قط في هذا الأمر. فالكل مضطرون إلى الطاعة والخضوع والانقياد لهذا الأمر. فهو سبحانه مالك الملك، يتصرف في ملكه كيف يشاء، وتصرفه هذا يجعلنا خاضعين منقادين، لا حول لنا ولا قوة تجاهه.

أما الأمر الديني أو الشرعي، فهو أيضاً موجّه إلينا، ولكن إنفاذ هذه الأوامر وعدم إنفاذها منوط بالإرادة التي أُعطيت لها صلاحية نسبية مع أنها ليست لها وجود ذاتي.

وعندما نفهم هذين الأمرين نفهم معاني ومحتوى "الأوامر" الواردة في القرآن الكريم والتي يبدو فيها اختلاف ظاهري.

فكيفما تتعلق الإرادة والمشيئة الإلهية بالآيات التكوينية (أي القوانين الكونية) تظهر الأشياء والحوادث وفقها إلى الوجود. أما في الأمر الشرعي، فقد أمر سبحانه بما يريد عمله وبما يرضى عنه. ففي كِلا الأمرين هناك مشيئته ورضاه.

فعبادة الملائكة وأعمالهم هي بمشيئة الله سبحانه، وكذا الأنبياء. والأعمال

الصالحة التي يقوم بها العباد والصالحون أيضاً مثل ذلك. فالله ﷻ راضٍ عن كل ذلك. ولكن هناك أمور لا يرضى عنها رغم أن في أساسها مشيئته، كالكفر والآثام والسيئات بأنواعها. فالآيات الكريمة الآتية تشير إلى هذا النوع من الأمر: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(الزمر: ٧)، ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص: ٧٧)، ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام: ١٤١)، ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة: ١٩٠)، ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾(النساء: ٣٦).

نعم، إن الله سبحانه يخلق الفساد، وخلقه هذا إنما يكون بتعلق مشيئته به، ولكن لا يرضى عن الفساد. والأمر هكذا في جميع أنواع السيئات. فإذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية نفهم بعض الآيات الكريمة بصورة أوضح. ولنُلْقِ نظرة من هذه الزاوية إلى الآية الكريمة الآتية:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(الإسراء: ١٦). أي إذا أردنا أن ندمّر بلدة أو حَضارة نسلط عليهم سفهاءهم وأسافلهم بل أظلمهم يذيقونهم أشد العذاب بعد أن يغتصبوا منهم رزقهم، حتى اللقمة من فمهم. ولكن هؤلاء هم الذين يجعلون أولئك الظلمة على رؤوسهم أيضاً بعد أن تعوّدوا على كل نوع من أنواع المهانة والذل. وفي الظاهر أنهم انتخبوا هؤلاء بإرادتهم، وجعلوهم رؤساء عليهم. ولكن هل في الحقيقة هكذا؟

والمترفون هم السفلة والمنحطون روحاً ومعنىً، ولكنهم تولوا القوم فأصبح قدَر الأمة السفالة ولهم السفاهة. وذلك بتوليهم أمر الأمة وتمكنهم من زمام الحكم. فهؤلاء المترفون يستغفلون الناس ويضلونهم، فإذا ما بلغ الأمر إلى هذا الحد فإن تلك الأمة أو الحضارة قد آن إذن أوان انهيارها.

يبدو أن الأمر هنا هو أمر تكويني. فهو ليس أمراً شرعياً. لأن الله سبحانه لا يأمر قطعاً المترفين بأمر شرعي ليقترفوا ما يقترفون من الموبقات. والدليل

على ذلك ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾(الأعراف: ٢٨). أما التوفيق بين الأمرين في الآيتين الكريمتين فهو أن الأمر في الأولى أمر تكويني وفي الثانية أمر شرعي، كما هو في الأمر الوارد في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد: ١١).

فإذا ما دب الفساد في الكيان الباطن وتساقطت نجوم سماء الروح، ودار سعد الحياة الاجتماعية والحضارة عكس دورانه، انكفأت الأنوار التي كانت تبهر الأنظار وترجع القهقرى إلى مواضعها، وتنطفئ وتذهب.

ولهذا لا بد من إدراك كلٍّ من الأمرين إدراكاً جيداً.

ولقد ضلت الجبرية لعدم قدرتهم على التمييز بين هذين الأمرين التكويني والشرعي. حيث خلطوا بينهما فأنكروا الإرادة الإنسانية. والمعتزلة بدورهم اتخذوا الإرادة أساساً لهم وقالوا: العبد خالق لفعله. فزلّوا عن سواء السبيل. أما نحن فنأخذ الجوانب الحسنة من كلا الطرفين، ونجمعهما معاً على صراط مستقيم ونقول: إن المشيئة الإلهية هي الأساس في كل من الأمرين التكويني والشرعي، ولكن في الأمر الشرعي أعطيت لإرادة العبد مرتبة وهي عدُّها كشرط عادي. فإن لم تتعلق بها المشيئة فلا يوجد شيء قطعاً. ولكن الأشياء التي لها وجود خارجي ليست على هذا النمط. حيث تتعلق المشيئة الإلهية حتى بالأمور السيئة والقبيحة. إلاّ أنه ﷻ لا يرضى بها. ولهذا يعاقب العبد على ما ارتكب من سيئات.

وترتبط الهداية والضلالة بالمشيئة الإلهية أيضاً. والقرآن الكريم يوضح هذا في كثير من آياته: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام: ١٢٥).

تهبّ نسائم الإيمان وتلامس برقتها وعذوبتها شغاف قلب الإنسان ويجد حلاوة السعادة، ويمنحه ذلك الإيمان نشوة ما بعدها نشوة، وكلما ازداد

الإيمان ازداد انشراحاً وحبوراً حتى يحظى بذروة كمال الإنسانية ويصبح بكلّه مثالاً للحسنى والمروءة والفضيلة. فلا شك أن الإنسان ليس هو بذاته ارتقى هذا المرتقى بل الذي أوصله إليه هو الله القادر على كل شيء. فهو الذي هداه ورقّاه مرتبة مرتبة في سُلّم الهداية حتى أبلغه قمة الهداية. بينما الكثيرون ممن مُنحوا عقلاً وذكاءً لم يحظوا بالهداية ويعيشوا عيش البهائم، بمعنى أن سبب الهداية والضلال غير مربوط بالاستعداد والقابلية أو الإرادة الإنسانية، بل الهداية أمر متعلق بالمشيئة الإلهية.

وبهذا يتبين أننا لسنا في موضع يتيح لنا فرصة المداخلة في مواقع الأشياء والحوادث، ولهذا يمكننا القول: أننا لسنا إلاّ سبباً واحداً ووسيلة واحدة في الخلق. نعم إنه سبحانه لا يُوجد شيئاً إلاّ وقد أراده، فلا شيء في الوجود إلاّ بإرادته. فلا قدرة لغيره بجعل غير الممكن ممكناً والممكن غير ممكن. فقوته سبحانه ذاتية، ولهذا نراه سبحانه هو ذو القوة المتين، القوي العزيز. فكما وهب لنا القوة على القيام بالعمل فقد منحنا أيضاً استعمال إرادتنا بتلك الوجهة التي نريد. إلاّ أن المشيئة والإرادة تخصه هو سبحانه رغم أنه منحنا الإرادة. والوضع لا يختلف شيئاً في الهداية والضلالة. فلا هادي ولا مضِلّ إلاّ هو سبحانه.

وهو الذي أدخل دافع قتل الرسول ﷺ في قلب عمر فسار إليه وهو عازم على قتله. هذا السير الذي ظاهره كأنه ضلالة وإذا به يدخله في أحضان الهداية. وهو الذي أبقى الشاعر الأعشى في الضلالة جاعلاً الخمر سبباً.. وأمثال هذه كثيرة تعد بالمئات بل بالألوف.. ترى هل يبقى أمام الإنسان بعد ذلك شيء غير الاعتراف بأن الهداية والضلالة بيده ﷻ؟ نعم، إن الهداية والضلالة بيده ﷻ.

بجنب الإقرار بجميع ما ذكر، فقد وضع سبحانه في ماهيتنا إرادة مجهولة الماهية حيث لا عبث في إجراءاته، وأنشأ/وينشيء على هذه الإرادة المجهولة الماهية جميع ما فعلناه/ونفعله في الماضي والمستقبل. فضلاً عن أنه قد وضع

تصميم وتخطيط هذا البناء مسبقاً في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الإنسان. فليس لنا إذاً إلاّ طلب الهداية منه سبحانه. لأنه كما ذكرنا آنفاً في الآية الكريمة، من يرد الله أن يهديه يشرح صدره ويرغّبه في الإسلام ويظهر له وجه الحقيقة المليح. والإنسان بدوره يجد دافعاً واشتياقاً لطلب الحقيقة. ومن أراد الله ضلاله يجعل صدره حرجاً وضيقاً. فلا يعد يرضى بأي أمر للإسلام ويعرض عن التذكير والنصيحة: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾(المدثر: ٤٩-٥٠) حتى تكون كل خطوة يخطوها تبعده عن الإسلام.

وليس فيما ذكرناه إلاّ شرط عادي لا غير، وهو إرادة الإنسان وتردده بالقيام بعمل ما أو عدم القيام به. وحقّاً إنّ عدّ الإنسان نفسه حراً في وجدانه يبين هذا الأمر بوضوح وبذلك يعدّ نفسه مسؤلاً وجداناً. فالإرادة تؤدي وظيفة الحجر الأساس في الأفعال. والله سبحانه ينشيء كل ما يريد خلقه على هذا الحجر الأساس.

هب أنكم تريدون تعديل أوضاع هذه الدنيا، فاستعملتم إرادتكم التي تشعرون بوجودها في وجدانكم إلى مرحلة معينة في ذلك الجانب، وصرفتم ثروتكم ومساعيكم في تلك الجهة حتى بذلتم كل ما لديكم من طاقة ومال في ذلك السبيل واختبرتم جميع الطرق المؤدية إلى ذلك الهدف، ولم تدّخروا جهداً واستنفدتم طاقاتكم. أي أفرغتم كل ما يُنتظر منكم من إرادة في ذلك السبيل. وعند ذلك ستمدكم إرادة الله سبحانه بنصره وسيمنحكم ما تريدون من وسائل. نعم، سيتفضل سبحانه على إرادتكم -المجهولة- كثيراً جداً من الإنعام والأفضال. وهذا قانون إلهي لا يتبدل قط.

فعليكم أن تدركوا ما يترتب عليكم من أعمال وفق هذا الإدراك، وما تنتظرونه منه سبحانه تنتظرونه وفق هذا الإدراك. وإذا ما تفضل سبحانه عليكم ببعض إنعاماته وإكراماته من دون أن تكونوا أهلاً لها، فهذا لطف وكرَم منه سبحانه -فهو لا يُسأل عمّا يفعل- ولكن لا تُبنى الأعمال على

الألطاف والإكرامات. نعم إن ما يترتب عليكم وعلى إرادتكم ضمن دائرة الأسباب، عليكم إنجازه، ثم سترفعون أيديكم وتطلبون منه تعالى. وإذا أخذنا المسألة من بدايتها، فإن الله سبحانه سيغيّر ما بكم من شقاء ويملأ الأرض عدلاً وتستقر الأمور على الصلاح، بعد أن تؤدوا ما يترتب عليكم من الوظائف والأعمال.

ألا يكون الأمر هكذا؟ إن الله سبحانه ينعم بالشهادة على مَن يجود بروحه في سبيله. ثم تتوالى النعم من جنة النعم ومشاهدة جمال الله جل جلاله ونعم أخرى لا تعد ولا تحصى. وكأنه يتفضل بمقاولة وعقْد بيْنه وبين الإنسان.

ولهذا لا تنتظروا نـــزول المسيح ولا مجيء المهْديّ المنْتظَر من قبْل أن تؤدّوا ما عليكم من أعمال، فلا يغيّر سبحانه قوانينه وعاداته الإلهية من أجلكم والتي لم يبدّلها حتى لأنبيائه الكرام. نعم، الطريق هو هذا، منذ القدم.

فقد ظل النبي ﷺ طاوياً على الجوع والعطش، وانكسرت ثناياه في الحرب، وجرح خده، وأُدميت قدماه، ولاقى ما لاقى من العذاب والعنَت. والأمر نفسه وقع لمن كان حوله من الصحب الكرام. فلقد مستهم البأساء والضرّاء حتى قال الجميع معاً "متى نصر الله؟". وعندها نـــزل النصر الإلهي وقيل لهم: إن نصر الله قريب. فالآية الكريمة الآتية توضّح لنا هذه الحقيقة:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤).

أي لما نفد كلُّ شيء، فلا لقمة تسدّ الرمق ولا جرعة ماء تشفي الغليل ولا قطعة حصير ليضَع الإنسان عليها جنبه... في هذه الآونة يرد من الغيب بلسان الحوادث: إن نصر الله قريب. أنتم ستبذلون إرادتكم إلى أن تسمعوا هذا الصوت. كالشمعة تشتعل وتشتعل –وهي ما يترتب عليها– حتى إذا انتهت آخر ذبالة فيها إذا بنصر الله يأتي. وأنتم كذلك تبذلون قصارى

إرادتكم الجزئية وإلى آخر نقطة فيها، عندها تعمل الإرادة الكلية عمَلها فيتبدل الذل إلى عزّ وسؤدد، ويتبدل الإدبار إلى إقبال مشرق.

والآن هل تعتقدون أنكم حقاً بذَلتم كل إرادتكم، وبكل ما أوتيتم من طاقة؟ فإن كان الجواب: نعم، فإني أُبشركم: ثقوا واطمئنّوا أن الله الذي بيده مقاليد السموات والقادر على كل شيء سيمدّكم بنصره ويحيق المكر السيّئ بأهله بإرادته المطلقة، ويحفظكم من كل مكروه وسوء. إن عادة الله هي هكذا. فثقوا بالبشارة مادمتم على ثقة من أنكم أدّيتم ما عليكم من واجبات ووظائف.

نختم ما قمنا به من تحليل حول القدر والمشيئة الإلهية بالجملة الآتية:

إن الله سبحانه يعلم بعلمه المحيط بكل شيء كل ما سنفعله في الآتي، ويعيّن ما يعْلمه ويقدّره ويسجله في اللوح المحفوظ على شكل خطة. ثم يسجل الملائكة الكرام أعمالنا في كتب. ويكون الكتابان مطابقين تماماً. ولا شك أن مشيئة الله هي النافذة في كل ذلك. فنحن أهل السنة والجماعة نعتقد بأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٤. القضاء والقدر من حيث الخلق

إن الله خالق كل شيء. فكل "شيء" مخلوقه، ونحن وأعمالنا داخلون في ذلك "الشيء". ولهذا ورد في القرآن الكريم:﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:٩٦). وفي حديث شريف يقول الرسول ﷺ "إن الله تعالى صانعُ كل صانع وصنْعته".[١]

أيّ شيء تعملون؟ تنحتون الحجر أو الرخام، فخالقكم وخالق ذلك العمل هو الله. والذي منحكم مَلَكة التفكر، ثم جعلكم تتفكرون ثم بعد

(١) أمالي المحاملي، ص: ٣٠٩؛ كنـــز العمال للمتقي، ٢٦٣/١.

ذلك جعلكم تعبّرون عما تتفكرون به... هو الله أيضاً. فما حصة إرادتنا إذن؟ وما وظيفتها في مثل هذه الأمور؟

إن ما نسميه "الإرادة" صغيرة صغيرة إلى درجة ضئيلة جداً، بحيث مهما توسعت آفاق نظراتنا وتعمقت لا تستطيع رؤيتها ولا تمييزها، لأن ليس لها وجود خارجي. وهي صغيرة إلى حد لا يمكن إيجاد علاقة بينها وبين ما يترتب عليها من أعمال حسب قاعدة "تناسب العلية". نعم إن إرادتنا مهما كانت صغيرة فإن أفضال الله علينا وألطافه كبيرة وعظيمة.

الخالق هو الله... فالقرآن الكريم والسنة النبوية والوجدان الحيّ اليقِظ شهود على هذا. ولهذا فالرسول ﷺ ومن ورائه أمته الذين نحن منهم، نسأله تعالى أن يكون ما قدّره الله لنا خيراً، استناداً إلى رحمته تعالى لا إلى إرادتنا نحن. ولأجل توضيح هذه المسألة فحسب أُورد دعاءً أو دعاءين:

"اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تَقْدر ولا أَقْدر، وتَعْلم ولا أَعْلم، وأنتَ علام الغيوب. اللهم إنْ كنتَ تعلم أن هذا الأمرَ خيْرٌ لي، في ديني ومعاشي وعاقِبةِ أمري، أو قال: عاجِلِ أمري وآجله، فاقْدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنتَ تعْلم أنّ هذا الأمر شر لي، في ديني ومَعاشي وعاقبة أمري، أو عاجل أمري وآجله، فاصْرفه عنّي واصرفني عنه، واقدر لي الخيرَ حيثُ كان، ثم رضّني به".(١)

فالرسول ﷺ يعلمنا في دعائه هذا بعض أسرار القدر وأنه لا يوصلنا إلى الخير ويدفع عنا الشر إلاّ الله القدير. فهو الذي يبعدنا عن الشر بإذاقتنا آلام السيئات في وجداننا، بينما في الخير يرسل نسائم رحمته في وجداننا فننشرح ونسعى بكل كياننا لنحتضن ذلك الخير. وفي الحقيقة أنه هو وحده "بيده الخير" فلا يقدر سواه على جلب الخير أو إبعاده عنا، ولا احتمال في ذلك لغير ذلك قط.

---

(١) البخاري، التهجد ٢٥؛ ابن ماجة، الإقامة ١٨٨.

إن الله سبحانه هو الذي صرف البلاء الذي نـــزل على سيدنا يوسف عليه السلام ولن نبحث عن الـــ﴿بُرْهَانَ﴾ الذي رآه هنا، إلاّ أننا نقول: أن الله سبحانه قد حافظ على نبي عظيم مخلَص ووقاه من شر امرأة. ولهذا ذكر في القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(يوسف: ٢٤). فهنا يدخل اللطف والإحسان الربانيّ بين السيئة وميل إرادة الإنسان، وينجي الشخص من الميل إلى الشر. إلاّ أن هناك أمراً واحداً وهو إن إخلاص يوسف عليه السلام هو الذي جلب ذلك اللطف والإحسان لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(يوسف: ٢٤). ويوضح هذا المعنى حديث الرسول ﷺ ذو المعنى العظيم والمغزى العميق:

"ألا وإنّ في الجسَد مضغةً إذا صلحتْ صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلبُ".(١)

نعم، إن بلوغ القلب الإخلاص، وجيشانه بحب الله وإجلاله، يعدّ وسيلة لدفع البلايا التي تتعاقب في النـــزول.

وفي حديث يرويه البخاري أيضاً أن الرسول ﷺ يذكر في أحد أدعيته أن الله خالق الأفعال كما هو خالق كل شيء. وذلك في دعاء:

"اللّهم لا مانع لما أعطيتَ ولا مُعطِيَ لِما منعتَ ولا ينفعُ ذا الجدّ منك الجدُّ".(٢) ففي هذا الدعاء ندرك أنه لا رادّ لقضاء الله وحكمه سبحانه، لذا فليس لنا من الأمر شيء إلاّ الميل والتوجه نحوه.

وفي الحقيقة أننا نمتلئ ثقة عظيمة وشعوراً بالاطمئنان بأن الله هو خالق أفعالنا أيضاً. فهذه بشارة عظيمة وإيمان قوي حيث لا يدعنا خالقنا مع أفعالنا، فهو سبحانه في كل آن وحين أقرب إلينا من أنفسنا. ترى ما الذي يفرح الإنسانَ ويشرح صدره أكثر من هذا؟ فنحن بهذه المشاعر نرمي أنفسنا

(١) البخاري، الإيمان ٣٩.

(٢) البخاري، القدر ١٢.

في أحضان الرحمة ونفوّض جميع أفعالنا إليه تعالى. فهذا التسليم المطلق منّا لله وسيلة لجلب المشيئة الإلهية كالموجة الهادرة تدفعنا إلى بحر المعرفة الإلهية. فنحن ننتظر إرادته ومشيئته ونعلق به آمالنا ورغباتنا. نرجو ألاّ يخيبنا المولى القدير في انتظارنا هذا (آمين).

ولقد ذكرنا في مستهل الموضوع أن الهداية والضلالة من الله تعالى ووجودهما مرتبطان بمشيئة الله وخلقه. والقرآن الكريم يوضّح هذه المسألة توضيحاً وافياً إلاّ أننا نذكر على سبيل المثال آية أو آيتين فقط:

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (الكهف:١٧)، ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾(الإسراء:٩٧)، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾(الزمر:٣٧).

من يهد الله تنسكب أشعّة الهداية في قلبه حتى تستقر فيه. ومن أراد أن يضلّه فلا يدفع عنه الضلالةَ أحدٌ حتى لو اجتمع الخطباء والوعاظ معاً وشرحوا كل ما يلزم إنقاذه من الضلالة فإنهم لا ينقذونه، رغم أنهم يؤجرون على عملهم. لأن القابلية للهداية قد سُلبت منه. فلا جدوى من أي عمل. أَعتقدُ أنّ المنظر العام لحاضرنا مثال كاف وواف لهذا.

وهنا يجب ألاّ نُبْعِدَ عَن أنظارنا أمراً وهو: أن الله خالق الهداية والضلالة، إلاّ أنه يخلقهما وفق الإرادة رغم أنها اعتبارية. فالعبد يطلب والله سبحانه المتصف بإسمَي "الهادي" و"المضلّ" يخلق الهداية والضلالة، ولذا فالعبد بالذات هو الضال. ولهذا فنحن في الصلاة وفي قراءتنا لسورة الفاتحة نقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٧)، والرسول ﷺ يقول: "إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى".[1]

وحيث إن الموضوع بلغ بنا إلى هذا الموضع فلا بد أن نقف قليلاً لنتأمل في مراتب الهداية ومعانيها كي نحول دون الوقوع في الفهم الخاطئ.

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٣٧٨/٥.